عَينُ زبيدة

عمل إنساني نبيل قامت به امرأة من أجل المحتاجين وأبناء السبيل

الحلقة (١)

نزار نجار / قاص وكاتب

كيف بدأت الفكرة؟

هذا عمل إنساني نبيل قامت به امرأة عربية شريفة هي السيدة زبيدة[١] بنت جعفر بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور زوجة هارون الرشيد عندما وجدت هدفها عظيماً وهو وقف المياه لفائدة المسافرين والحجاج الفقراء، فقد أخذ هذا الوقف كل اهتمامها، في عصر امتاز بقوة الحضارة العربية الإسلامية ونضجها، وفي مرحلة تاريخية مزدهرة بالمعرفة والثقافة، وقد كنا إذ ذاك نحمل مشكاة التقدم والحضارة ونتربع على رابية المجد وقمة الشرف.

إن درب زبيدة بالغ الأهمية ليس بوصفه أثراً قيماً فحسب، بل كعلم، وفق معمار هندسي يكشف عن براعة الأساليب المستخدمة في نقل المياه وتوزيعها.

ولا شك أن درب زبيدة يحكي الدور الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في ميدان وقف المياه وتوفيرها بواسطة حفر الآبار والقنوات ورصدها للمحتاجين وأبناء السبيل.

إن عمل زبيدة لإجراء هذه المياه ووقفها في سبيل الله، يعد عمل عظيماً جداً، استنطق الألسن بالترحم عليها كلما روى حاج ظمأه، ونقع غلته أو سبغ وضوءه.

ويحدثنا التاريخ أن السيدة زبيدة أنفقت على هذا العين مليون دينار،وأنها لما انتهت من العمل، جيء إليها بدفاتر لحسابات لمراجعتها، فأمرت بطيها، وبإلقاء السجل في نهر دجلة، وقالت:(إنما عملناه، في سبيل الله، فلا فرق أن تكون النفقة أكثر أو أقل، ولقد تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شيء من بقية المال، فهو له، ومن بقي له عندنا شيء أعطيناه[٢]).

لقد كانت زبيدة زوجة هارون الرشيد مصلحه اجتماعية، يقول المسعودي في كتابه مروج الذهب: ((وكان أحسن فعلاً في أيام الرشيد، أم جعفر بنت المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة، واتخاذ المصانع بها، وما أحدثته من دور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس،وما أوقفته على ذلك من الوقوف))"[٣]".

ومن أروع آثارها الخالدة حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، وقصة ذلك أنها حجت عام ١٨٦ هـ، فأدركت ما يعانيه أهل مكة في المشاق للحصول على ماء الشرب، فدعت خازن أموالها، وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال ليبدؤوا الجفر، وليشق الطريق للماء في كل خفض ورفع، وسهل وجبل، مسافة اثني عشر ميلاً حتى يوصل الماء إلى مكة، وقد ظهر التردد على خازن الأموال لما تصوره من كثرة التكاليف، فأدركت زبيدة سبب تردده، فقالت له بحزم: ((اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً))"[٤] "، وعمل العمال وتم المشروع وقد بلغت تكاليفه مليوناً وسبع مئة ألف دينار.

إن الماء في البلاد الحارة، أحيا وأعذب وأبرد على الأكباد، وأطيب أضعافاً مضاعفة منه في البلاد الباردة، فقد كان أعظم ما يرزق به من الصواب والثواب، وما ترتفع به درجته في المبدأ والمآب، هو تفجير الينابيع وإسالة الجداول، وتقريب المشاريع في بلاد مثل الحجاز يقصد إليها الحجاج من الحار والبارد، والرطب واليابس بالألوف وعشرات الألوف ومئات الألوف، بالإضافة إلى الذين فيها من السكان.

عمل زبيدة ومشروعها مشروع عظيم وخطير،كان لها به دور بارز في تحريك الأحداث التاريخية، فتحته لضيوف الرحمن، ولجيران بيت الله ولقصّاده من جميع بلاد الشام، فلقد كانت السيدة زبيدة من بناة الحضارة والمدينة، ومؤسسي الأمجاد والمفاخر، ومن الصالحات اللواتي قمن بأعمال لفائدة الإسلام، والمؤمنات اللواتي ساهمن بقسط عظيم في تأسيس صرح الحضارة العربية والإسلامية.

من هي السيدة زبيدة؟

يقول ابن خلكان"[٥]": " أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، هي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد، فهي أم ملك وزوجة ملك وحفيدة ملك ".

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي"[٦]" في كتاب الألقاب: ((إنها لما سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وإنها أسالت الماء عشرة أميال بخط الجبل، وتحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرام، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها: " يلزمك نفقة كثيرة "، فقالت: " اعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار "، وكانت وفاتها سنة ست عشر ومئتين في جماد الأولى ببغداد رحمها الله تعالى))

وترجمها خير الدين الزركلي"[٧]" فقال: (زبيدة بنت جعفر بنت المنصور الهاشمية العباسية، أم جعفر زوجة هارون الرشيد وبنت عمه، من فضليات النساء، وشهيراتهن، وهي أم الأمين العباسي " أمة العزيز " وغلب عليها لقب زبيدة،

قيل: كان جدها المنصور يرقصها في طفولتها، ويقول: " يا زبيدة... أنت زبيدة " فغلب ذلك على اسمها، وإليها تنسب عين زبيدة في مكة المكرمة، تزوج بها هارون الرشيد عام ١٦٥ هـ، ولما مات وقتل ابنها الخليفة الأمين اضطهدها رجال المأمون، فكتبت إليه تشكو حالها، وهي المثقفة، رسالة استعطافية تقول فيها: " كل ذنب يا أمير المؤمنين وان عظم صغير في جنب عفوك، وكل إساءة وإن جلت يسيرة لدى حلمك، وذلك الذي عودك الله أطال مدتك وتمم نعمتك وأدام بك الخير ودفع عنك الشر والضير، وبعد: فهذه رقعة الولهى التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي وأن تصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك الله له طالباً وفيه راغباً فافعل وتذكر من لو كان حياً شفيعي إليك).

وعندما قتل الأمين، دخل عليها بعض خدمها فقال لها: (ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين) فقالت: (ويلك! وما أصنع ؟) قال: (تخرجين وتأخذين بدمه كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان) فقالت: (اخسأ، لا أم لك! ما للنساء وطلب الدماء) ثم أمرت بثيابها فسودت ودعت بدواة فكتبت إلى المأمون القصيدة التالية تشكو له حالها، وما فعله بها طاهر بن الحسين الذي قتل الأمين ومنها:

وأفضل سـام فـوق أعـواد منبر	لخير إمـام، قام من خير عن
وللملك المـأمـون مـن أم جعفر	لـوارث علـم الأولـين وفهمه
إليك ابن عمي من جفوني ومحجري	كتبت وعينـي مستهل دمـوعها
وأرق عيني يـا ابـن عمي تفكري	وقـد مسني ضـر، وذل كـآبـة
فأمـري عظيم منكـر جـد منكـر	وهمت لمـا لاقيت بعد مصـابـة
إليـك شـكاة المستهام المقهـر	سـأشكو الـذي لاقيته بعد فقده
فـأنت لبثّـي خـير ربّ مغيـر	وأرجو لما قد مر بي مـذ فقدته
فما طـاهـر فيما أتـى بمطهر	أتى طاهر لا طهر الله طـاهـراً
وأنهر أمـوالـي وأحـرق أدري	فأخرجني مكشوفة الوجه حاسراً
ومـا مـر بي من ناقص الخلق أعور	يعز على هارون مـا قـد لقيته
صبرت، لأمـر مـن قديـر مقدر	وان كان مـا أسدى بأمر أمرته
علـي أمـير المـؤمنين فغيـر	وان كان مـا قـد كـان منه تعدياً
فديتك مـن ذي حـرمـة متذكـر" [٨]	تذكـر أميـر المؤمنين قـرابتي

فلما قرأ المأمون شعرها بكى بكاء شديداً، ثم قال: ((اللهم إن أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما بلغه قتل عثمان رضي الله عنه والله ما أمرت وما رضيت، اللهم جلل قرب طاهر حزناً)) ثم أجابها معتذراً: ((وصلت رقعتك يا أماه أحاطك الله وتولاك بالرعاية و وقفت عليها وساءني ـ شهد الله ـ جميع ما أوضحت فيها، لكن الأقدار نافذة والأحكام جارية والمخلوقون في قبضتها لا يقدرون على دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات، وكل حي إلى ممات،وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك، ولم تفقدني ممن مضى إلى رحمة الله إلى وجهه، وأنا بعد ذالك على أكثر مما تختاريه والسلام[٩]..)) . فعطف عليها وجعل لها قصراً في دار الخلافة، وأقام لها الوصائف والخدم، وكانت لها ثروة واسعة.

وتحدثنا الروايات أيضاً، أن زبيدة عندما قتل ابنها الخليفة الأمين قالت ترثيه:

وقد بنيت به للدهر أساساً رزئته حين باهيت الرجال به

حتى يـرد علينا قبله ناسا فليس من مات مردوداً لنا أبداً

ولما دخل المأمون بعد قتل ابنها الأمين، قالت له: "أهنئك بخلافة قد هنئت نفسي بها عنك قبل أن أراك ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفةً لقد عوضت ابناً خليفةً لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ وإمتاعاً بما عوض...".

لقد كانت زبيدة تالية لكتاب الله ومما يدل على مدى اهتمامها بالقرآن الكريم أنه كان لها مئة جارية يحفظن القرآن وكان يسمع لهن في القصر دويٌّ كدوي النحل وكان ورد كل واحدةٍ عشر القرآن"[١٠]".

قال ابن تغري بردي في وصفها" [١١]":"أعظم نساء عصرها ديناً وإصلاحاً وجمالاً وصيانةً ومعروفاً...".

وتوفيت ببغداد عام ٢١٦ هـ، وقد خلفت أثاراً عديدةً غير العين.

أثار زبيدة بين مكة والمدينة

قال ابن جبير الأندلسي في رحلته إلى بلاد العرب في كلامه على طريق مكة، وقد كانت حجته عام ٥٧٩ هـ، ((وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي من آثار زبيدة بنت جعفر، انتدبت لذلك مدة حياتها فأبقت في هذه الطريق مرابع ومنافع تعم وفد الله كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق))" [١٢]".

المراجع والمصادر:

١. لقبها جدها أبو جعفر المنصور زبيدة لبياضها ونضارتها. وذكر الطبري في تاريخه أن هارون الرشيد أعرس بها في سنة خمس وستين ومائة وكانت وفاتها سنة ست عشرة ومئتين في جمادى الأولى.
٢. تاريخ الطبري ج٤/ص٦٣٥٤ وج٥/ص١١ وما بعدها ـ ط بيروت ١٩٩٧.
٣. مروج الذهب للمسعودي ج٢/ص٥١٦ دار الأندلس ـ مكتبة الحياة / بيروت.
٤. تاريخ الطبري ج٥/ص١٠٥-١٠٩ ـ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧.
٥. وفيات الأعيان الابن خلكان ج١ص٢٣٧ ـ ط علي بك جودت القاهرة ١٢٩٩هـ.
٦. بن الجوزي أبو الفرج ٥٠٨ ـ ٥٩٧هـ.
٧. خير الدين الزركلي ١٣١٠ ـ١٣٩٦هـ صاحب الأعلام.
٨. وفي رواية تنسب هذه الأبيات لخزيمة بن الحسن على لسان أم جعفر. انظر الطبري المجلد ٥/ ص ١٠٩ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٧ ـ ١٩٩٧.
٩. تاريخ الطبري المجلد ٥/ ص ١٠٩ وما بعدها.
١٠. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج١ ص ٢٣٧،ط علي بك جودت القاهرة ١٢٩٩هـ.
١١. انظر النجوم الزاهرة ـ ابن تغري بردي ط دار الكتب المصرية ١٣٤٨ ـ ١٣٧٥هـ.
١٢. رحلة ابن جبر الأندلسي / ت. د. حسين نصار ـ ص ١٥٥.

مصادر البحث

- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٠، ١٩٩٢م.
- أبحاث المؤتمر الرابع عشر للآثار والتراث والحضاري العربي، الشارقة ١٩٩٨م.
- التراث الجغرافي والإسلامي، محمد محمود محمدين، دار العلوم ط ٣،١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري، آدم سيتز، ترجمة عبد الهادي أبو ربدة القاهرة، ١٩٤٧م.
- كتاب المناسك ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، ١٣٩٦ هـ.
- الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، وزارة الشؤون الإسلامية المغرب ١٩٨٢م.
- مرآة الحرمين، وإبراهيم رفعت الباشا، الجزء الثاني بولاق، القاهرة ١٩٤٧م.
- مروج الذهب ومعادن جوهر، تصنيف علي بن الحسن المسعودي ـ السفر الثالث ـ ط وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٩م.

عَينُ زبيدة

عمل إنساني نبيل قامت به امرأة من أجل المحتاجين وأبناء السبيل

الحلقة (٢)

نزار نجار / قاص وكاتب

أين تقع عين زبيدة؟

في الطريق المؤدية إلى جبل عرفة، تقع عين زبيدة التي جمعت كل مصادر المياه المحيطة بمكة، و أوصلتها إلى أم القرى لتوفير المياه للحجاج، ولسكان البلدة المقدسة.

لقد كانت مكة قبل أن تقوم السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد تسقى من بعض الآبار والعيون داخلها، وكانت الآبار كثيراً ما تنضب، وكان معاوية بن أبي سفيان قد أجرى الماء إلى مكة من العيون والآبار في القنوات، وسرعان ما تقوضت، وأصاب الناس جهد شديد، حتى أمرت زبيدة بإجراء عين بوادي نخلة - المعروفة الآن بالشرائع - بعد أن اشترت الأراضي التي كانت مياه العين ترويها، وأمرت بإجراء عين من وادي نعمان في قناة محفورة إلى عرفة فمزدلفة فالبئر الكبيرة، بئر زبيدة المعروف مكانها بحبس الجن على أربعة كيلومترات من مكة، وطول القناة ٢٨ كم، وتنبع عين نعمان من جبل حراء الذي يصل بين عرفة و الطائف، وأجريت مياه وادي النعمان حتى بلغت منى، وعندما اشتدت أزمت الماء، لاسيما في عرفة ومنى، أيام الحج، انتدبت زبيدة لهذا الأمر وأسالت العين المسماة باسمها من مسافة نحوه أربعين كيلومتراً، وقد قدم كل من الخلفاء والأمراء إضافة إلى الطريق، ولكن أطلق عليها اسم السيدة زبيدة للدور البارز الذي قامت به.. والذي كان هدفها هو تسهيل الحج والسفر على الفقراء الذين كانوا يؤدون فريضة الحج أحياناً، سيراً على الأقدام، ويظهر ذلك من المسافات بين المحطات.

قال ابن رستة (المتوفى سنة ٣٠٠ هـ): "وشرب أهل مكة من القنوات التي حفرتها أم جعفر في خلافة الرشيد، وأجرتها من موضع يقال له (المشاش) في قنوات رصاص".

لقد نبعت فكرة إنشاء عين زبيدة حين شعرت زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد أثناء حجها بمدى العنت الذي يعانيه الحجاج والمعتمرون نتيجة شح المياه، فأمرت بإجراء عين وادي النعمان ووقفت لذلك أيما توفيق فوصل الماء زلالاً إلى عرفة ومزدلفة وأصبح قريباً من منى فيما يعرف ببئر زبيدة وفي العصر العثماني عام ٩٧٩ هـ قيض الله كريمة السلطان سليمان خان السيدة خانم سلطان – رحمهم الله- بأعمار العين فوجهت المهندسين والفنيين والبنائين وكانوا قرابة(١٠٠٠) شخص في مختلف الدول الإسلامية بأعمارها فبطح لتلتقي بمياه عين حنين أمام مبنى إمارة منطقة مكة المكرمة ثم إلى المعلاة ثم إلى الحرم، ثم يتوزع الماء في شبكة حجرية جميلة داخل أحياء مكة المكرمة ليصب في ثلاثة وثلاثين بازاناً (حوضاً) منتشرة في مختلف أحياء مكة المكرمة، وظل هذا المشروع يسقي الحاج والمعتمر والمقيم والمجاور لمدة تربو على ١٢٠٠ عاماً.

يستغل هذا المشروع المبارك المياه المنحدرة من مسايل لأودية وادي نعمان - الذي يقع متاخماً مكة المكرمة من جهتها الجنوبية الغربية - التي تجد طريقها لتستقر في باطن المكامن الجوفية حيث تتسرب إلى داخل قنوات حجرية أو أنفاق صخرية أو شبه صخرية تنساب بهدوء وطمأنينة لتصل إلى عرفات ومزدلفة ومنى فمكة المكرمة رقراقة عزبة كالزلال تسقي الحجيج والمعتمرين والمجاورين والمقيمين وقوافلهم ودوابهم عبر أحواض وبازانات وبرك وما فاض عن حاجتهم وجهوه إلى مزارعهم، فاستفادوا منهم فيما ينبت طعامهم وطعام دوابهم، تتراوح كميات هذه المياه بين عشرين وثلاثين ألف متر مكعب يومياً بنيت هذه القنوات لتمد المشاعر المقدسة ومكة المكرمة بالمياه على مدار الساعة، نعم قد يقل ماؤها إذا شح المطر، وقد يكثر إذا زاد، فكلما ارتفع منسوب الماء عن منسوب سقف القنوات زاد ضخ العين، وقد بنيت قنوات العين عند مناسيب معينة بحيث يبقى منسوب الماء أعلى أو مقارباً لمناسيب هذه القنوات فلا تستنزف مياه الوادي مطلقاً، وفي هذا بقاء مياه المخزون الجوفي للوادي، مع تدفق مياه العين في الغالب ليتحقق مبدأ الديمومة وتلك نقطة فنية هندسية تسمى الآن في علم تخطيط وإدارة موارد المياه بالتنمية المستدامة.

قنوات العين:

تتكون قنوات العين من جزأين رئيسيين، الجزء المجمع للمياه وهو مبنى تحت سطح الأرض ويبدأ من نقطة الأمية، وهي نقطة تجمع مياه جميع روافد وادي نعمان العلوية المعروفة بعزوبتها والتي من أشهرها وادي عرعر، ووادي الشراء، ووادي مجاريش، ووادي يعرج، ووادي علق، خلال فتحات تسمح للمياه الجوفية بالانسياب إلى داخل القنوات ونقلها بالانحدار الطبيعي إلى أماكن الاستعمال - تقليلاً للتكلفة - ويبلغ الطول الكلي للقنوات قرابة ٢٦ كم.

أما الجزء الثاني فهو الجزء الناقل ومهمته نقل المياه فقط، وقد يكون فوق سطح الأرض مباشرةً أو معلق فوق جسور عند اختراق القناة لبطون الأودية، أو تحت سطح الأرض، وهو مبني بالحجارة من الأسفل، أما قواعده وجوانبه وهي مكسوة بما يمنع تسرب المياه منها، ومسقوفة بحجارة ثقيلة يصعب نقلها أو إزالتها وذلك للحفاظ على مياه العين من التلوث، وهذا بعد بيئي مهم حيث يمنع التبخر تماماً،

أو يمنعه من التبخر إلى أبعد حد، كما حقق هذا الصنيع بعداً صحياً بتغطية القنوات حتى لا يسهل فتحها فتكون عرضة للعبث والتلوث ـ في الغالب ـ اللهم إلا في أماكن محددة يقوم بفتحها مسؤول إدارة العين عند الحاجة، وتتخلل هذا الجزء من القنوات عبارات تسمح بمرور مياه الأمطار والسيول من غصون الأودية والشعاب، كما بنيت حوائط ساندة لتدعيم هذا الجزء من القنوات المبنية في سفوح الجبال وفي المناطق الضعيفة نوعاً ما، وهذا يؤكد ما توافر لهذا المشروع من الجوانب الهندسية والفنية.

تنحدر القناة باتجاه مكة المكرمة حتى تصل عرفة، ومن هنا سميت عين عرفة لتلتف حول جبل الرحمة من جهاته الشمالية والجنوبية والغربية، وقد مدت منها قنوات فرعية تصب مياهها في خزانات ثم أحواض وبرك، خصص بعضها ليتزود الحجاج منه بالماء لإكمال رحلة الحج، بعضها الآخر للدواب.

كما بني في هذه القنوات الملتفة بجبل الرحمة صنابير حجرية جميلة مع مجار لتجميع مياه الوضوء وصرفها إلى المزارع المجاورة التي كانت موجودة في السابق، ويعد هذا أول استخدام لمياه الوضوء والغسل في سقي المزارع، ثم تظهر القناة قبيل سفح جبل المأزمين على يسار القادم من عرفات، متسلقة الجبال لتظهر شاخصة للعيان، وقد دعمت بحوائط ساندة، وفتحت بها عبارات لتصريف مياه السيول والأمطار، ومن اللافت للأنظار اعتبار كبر مساحة فتحات عبارات المأزمين، واعتبار عظم كميات المياه المنصرفة من خلال ومن ثم تكون سيول تجرف ما يكون في طريقها واعتبار كونها تصب في درب الحجاج الدافعين من عرفة لمزدلفة،وحماية لهم، فقد بني سد لحجز تلك السيول والتحكم في تدفقها لسقي المزارع الواقعة في أسفلها ولا تزال.

ولم يغفل المهندسون الطابع الجمالي فبرعوا في تنضيد الحجارة في القنوات المعلقة، وأقاموا الأقواس على أعمدة حجرية جميلة مطعمة بحجارة صغيرة غاية في الجمال والدقة أخذت بشكل الفسيفساء الجميلة بألوان تتناسب مع البيئة الصحراوية المحيطة، مما يعطي منظر خلاباً ممتعاً، حدا بعلماء البيئة إلى ترشيحه كمكان مناسب لعمل منتزه وطني هذه كلها نقاط فنية هندسية رائعة تدل على رقي علمي في الدراسة والتصميم والتنفيذ آنذاك.

تصل عين زبيدة إلى مشعر مزدلفة حيث يوجد مقر لعين زبيدة مجاورة للمشعر الحرام، لتصب العين في برك وأحواض خصص بعضها لسقيا الحجاج و بعضها الأخر للدواب.

ثم تنحدر القناة فوق سطح الأرض متجهة إلى منطقة العزيزية المتاخمة لمنى، فوق سلسلة من الجبال لتزويد مشعر منى بالماء وتصب أيضاً في برك عديدة تسقي الظامئ وتزود المتزود بالماء الزلال، وتستمر هذه القنوات ومتجهة نحو مكة المكرمة، لكنها تعود لتأخذ مسارها مدفونة على أعماق قريبة من سطح الأرض حتى تصب في بئر عظيمة مطوية بأحجار كبيرة جداً تسمى بئر زبيدة،في منطقة تسمى اليوم بمحبس الجن، إليها ينتهي امتداد عمل قناة عين زبيدة.

تخترق القنوات خرزات، أو ما يسمى في العلم الحديث " غرف تفتيش " بعضها ظاهر على سطح الأرض ويسمى بالخرزات الظاهرة، وأخرى مدفونة حدد مكانها دون أن تظهر على سطح الأرض ولهذا التقسيم ملمح اقتصادي مهم نظراً لارتفاع تكلفة إنشاء الخرزات فلم تبن إلا عند الحاجة، وتستخدم الظاهرة منها في الصيانة الدورية وهي كافية لذلك النوع من الصيانة، أما النوع الثاني فتستخدم عند الحاجة إلى صيانة كبيرة نتيجة مداهمة سيل الحق خراباً أو كسراً ببعض القنوات، أو حين تمتلئ بالتراب، حيث تكون هناك حاجة لتنظيف أجزاء كبيرة من القنوات فتفتح الخرزات المدفونة مؤقتاً، ثم تقفل بعد انتهاء عملية التنظيف والصيانة، ويبلغ عدد الخرزات الظاهرة والمدفونة (١٣٢) خرزة.

ومن المفيد الإشارة إلى أن بعضها قد اقتضى العمل فيه أن تشق له الأنفاق على مسافات طويلة، وأن تنحت له الجبال، وأن تستخدم فيه كل الإمكانات الفنية والبشرية، وأن يدوم السنوات الطوال، وقد أشبع المؤرخون في ذلك إشباعاً وأوقفونا على سر من أسرار القدر، وعمل من أجل الأعمال، ربما شق مثله في عصرنا عصر الاختراعات والكشوف،والتقدم الباهر في تقنية الصناعات ولكنها الهمم لا يقف دونها شيء، ولا يصدها عن تنفيذ عزماتها صاد، ولاسيما إذا صفت النية وخلصت السريرة، وقد أتمت السيدة التركية كريمة السلطان سليمان العثماني ما بدأته السيدة زبيدة، وجددت أعمالها بمحاولة إسالة الماء من عين عرفات إلى مكة عام ٩٦٩هـ، واستخدمت في هذا العمل الخبراء والمهندسين وأنواع العمال المهرة من الشام ومصر واليمن والآستانة، غير أن العملية صادفت مانعاً صخرياً صلداً طويل المسافة، فكان لا بد من نقر الحجر لمسافة ألفي ذراع، أي ما يوازي كيلومتراً ونصف، وكانت الطريقة الوحيدة التي استخدمت في هذا الجزء هي إيقاد النيران حول جزء من الحجر مدة طويلة، ثم نقر هذا الجزء.

وتكرار هذه العملية، وقد دامت حوالي عشر سنوات، وإذ وصلت المياه إلى مكة عام ٩٧٩ هـ، وكان يوم وصولها يوم مشهوداً ومدت فيه الموائد، وتصدق على الفقراء، واحتفلت الآستانة به احتفالاً كبيراً، إذ كمل إجراؤه على يد السيدة مهروماه بنت السلطان سليم إلى حيث يرد الناس اليوم عين زبيدة [١] " .

ويقول أبو الوليد محمد الأزرقي في كتاب أخبار مكة" [٢] " ((كان الناس بعد في شدة من الماء، وكان أهل مكة والحجاج يلقون من ذلك المشقة حتى أن الراوية تبلغ في السنة عشر دراهم وأكثر، أو أقل، فبلغ أم جعفر، فأمرت بحفر بركتها التي بمكة، فأجرت بها عيناً من الحرم، فجرت بماء قليل لم يكن فيه وفرة لأهل مكة، وقد عزمت في ذلك عوماً عظيماً ‘فأمرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيوناً

من الحل ـ أي خارج أراضي الحرم، وكان الناس يقولون:" إن ماء الحل لا يدخل الحرم، لأنه يمر على عقاب وجبال، فأرسلت بأموال عظام، ثم رأت من يزن عينها الأولى، فوجدت فيه فساداً، فأنشأت عيناً أخرى إلى جانبها وأبطلت تلك العين فعملت عينها هذه بأحكام ما يكون العمل، وعظمت في ذلك رغبتها وحسنت نيتها، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية خل، فإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل، فأمرت بالجبل فضرب فيه، وأنفقت في ذلك من الأموال ما لم تكن تطيب به نفس كثير من الناس، حتى أجراها الله وأجرت عيوناً فيها من الحل، منها عين المشاش ـ بين عرفات والطائف ـ واتخذت بركاً تجتمع فيها السيول، إذا جاءت، ثم أجرت لها عيوناً من حنين، واشترت حائط حنين، فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سداً يجتمع فيه السيل، فصارت لها مكرمة ولم تكن لأحد مثلها، وطابت نفسها بالنفقة فيها..)).

ويقول ابن خلكان" [٣]": ((إنها سقت أهل مكة الماء، بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار وأنها أسالت الماء عشر أميال بخط الجبل، وتحت الصخر، حتى غلفته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها يلزمك نفقة كثيرة، فقالت: " أعملها، ولو كانت ضربة فأس بدينار...)).

وقد شهد الدرب منافسة طريفة بين زوجة هارون الرشيد وجاريته، فقد ساهمت السيدة خالصة جارية هارون الرشيد في عمارة الدرب وأقامت بركاً ومصانع، وحفرت آباراً، وبنت خانات وفي البستان بركة سميت بركة الخالصية على بعد ثلاثة أميال منها.

درب زبيدة..

أقيم الدرب في العصر العباسي ليصل بين بغداد عاصمة الدولة الإسلامية والأرض المقدسة. وقد ذكر الطبري" [٤]" أنه في عصر العباس ١٣٤ هـ: " ضرب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال ".. وتم توفير ما يحتاجه المسافرون في الصحراء، ((والمياه على رأس هذه الاحتياجات،فحفرت الآبار وأقيمت البرك والخزانات وأقيمت الخانات وفقاً لإقامة وراحة المسافرين، ووضعت العلامات لتهدي المسافرين، وأخيراً تم تأمين الطريق من هجمات القبائل وقطاع الطرق)).

وعندما تولى هارون الرشيد الخلافة عام ١٧٠ هـ أدى فريضة الحج سبع مرات، وفي كل مرة ينفق الأموال بسخاء على تعمير الطريق، وكان يخرج عاماً لقتال أعدائه، والعام الذي يليه يقضيه في التأمل، ويؤدي خلاله فريضة الحج، وكما روى المقريزي"[٥]": ((انتعش الطريق في عصره، وأقيمت عليه الخانات فكان يصحب معه خلال رحلته مائة من العلماء، وفي إحدى المرات اختار أن يؤدي الفريضة سائراً على أقدامه إلى مكة، وانعكس ازدهار الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد، وانعكس على درب زبيدة بصفة خاصة فشهد أزهى أيامه)).

و عندما خلف الأمين والده هارون الرشيد عام ١٩٣ هـ انعكست الحرب الأهلية التي نشبت بين الأمين والمأمون على الدرب، فلم يشهد أي عمارة جديدة.

وقد ولي المعتصم الخلافة ومن بعده الواثق، وكان الحجاج في عهده يعانون من بعد الطريق وشح الزاد والماء، وينقل الطبري وابن الأثير، كيف كانت كسرة الخبز تساوي درهماً، وشربة ماء تبلغ ٤٠ درهماً، وكيف مات عدد من الحجاج عطشاً في عام ٢٣٢ هـ عندما بلغت الشربة عدة دنانير ذهبية، فأعاد جعفر حفر عشرين بئر قديم على الطريق الذي يبدأ من زبالة إلى لينة ووضع على الطريق أعلاماً و بنى مواقد.

وفي عام ٢٣٢ هـ بعد المتوكل عادت القبائل تهاجم القوافل على الطريق، ويقتلون الرجال ويسبون النساء، وفي هذه الفترة قامت حركة الزنج، وتبعتها حركة القرامطة، الذين أقاموا دولتهم شرق الجزيرة العربية، وكانت الإحساء عاصمة لها، وهدموا كل ما أقيم على الطريق من خانات ومصانع وعلامات، وأخذت القوافل تسير في مواكب في جماعة الجنود المسلمين، ووصل الحال إلى توقيف الحجاج تماماً، بسبب غياب الأمن ونقص المياه وفضل الكثير من حجاج الانصراف عن هذه الطريق وتجنب مناطق الاضطراب، وأخذوا يسلكون طريق الشام أو البحر الأحمر ويروي ابن الأثير أنه في عام ٤٠٦ هـ مات ١٤٠٠ من عشرين ألف من الحجاج على الطريق عطشاً.

لقد كان فقراء الحجاج لا يطلبون يوم عرفة غير الماء لعزته وكان بعض الأقوياء يستحضره من الأماكن النائية لبيعه، فيربح فيه الأموال الطائلة.

قال العلامة قطب الدين الحنفي" [٦]": ((كنت يومئذ مراهقاً في خدمة والدي رحمه الله، وفرغ الماء الذي حملنا من مكة، واشتريت قربة صغيرة جداً يحملها الإنسان بإصبعيه بدينار ذهبي)) والفقراء يضجون من العطش يطلبون مني الماء ما يبلون به حلوقهم في ذلك اليوم الشريف، فشرب أهلنا منها، وتصدقوا بباقي القربة على من كان مضطراً إليها من الفقراء، ثم عطشنا جميعاً عقب ذلك وجاء وقت الوقوف، والناس في شدة الظمأ يلهفون، فأمطرت السماء، وسالت السيول من فضل الله ورحمته والناس إذ ذاك واقفون تحت جبل الرحمة فصاروا يشربون من السيل تحت أرجلهم، ويسقون دوابهم، وحصل البكاء الشديد من الحجاج لما رأوا من رحمة الله بهم، وإحسانه إليهم..)).

×××

وفي عام ١٢٩٥ هـ، أنشئت في مكة هيئة عين زبيدة، وكان عملها وما يزال، تعهد موارد الماء ومساربه، بالإصلاح والبناء، تنفق الهيئة على ذلك من الصندوق خاص بهم له أملاك وأوقاف، وتأتيه تبرعات وهبات، ودخل عبد العزيز الحجاز وعين زبيدة التي تستقي

منها سكان مكة والحجيج، وتسقي الناس من اثني عشر مورداً.. وانصرفت العناية إليها، فضوعفت مواردها.

×××

يقول خير الدين الزركلي رحمه الله في كتابه شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز: ((وغذاؤها الملك عبد العزيز بعد دخوله الحجاز بالمال، وأمر بزيادة الموارد للجهات))، فزيدت عشرة أضعاف كبيرة متينة البنيان، واستعيض عن مجاريها القديمة - في داخل البلدة - بأنابيب، وعمم الماء في عرفات فكثرت المكابس في الشارع العام، والشوارع الفرعية، وفي طريق الحجيج، وتوفر في مزدلفة، واتخذت الأسباب لتوفيره في منى.

وعلى بعد كيلو متر واحد من عرفات يتفرع مجرى عين زبيدة، مجرى صغير يملأ بركة الجاوي، وسعتها ٥٠٠ متر مكعب، وبعد كيلو متر ونصف، يتفرع مجرى الأحواض الذي يسمى بالمحمل الشامي، وسعة هذه الأحواض تقارب بركة الجاوي، وفي أسفل جبل الرحمة، حوض سعته ألف متر مكعب.

وفي منى عند الكيلو متر ٢٥، وضعت آلة بخارية لرفع الماء من مجرى عين زبيدة إلى منى، تملأ خزانات منه سنوياً قبل الحج بشهر، وكان هناك صهاريج يملؤها أصحابها من عين زبيدة مباشرة، وصهاريج يملؤها المطر، وهي لا تستعمل للشرب.

لقد تسبب التحول في يوم الناس هذا من نظام عين زبيدة إلى نظام الآبار الارتوازية، إلى نسيان وإهمال منشآت العين فتهدم معظمها وأزيل كثير منها واندثر حتى كادت أن تكون أثراً بعد عين، لكن الله تعالى قيد لعين زبيدة على مر التاريخ الإسلامي بدءاً من العصر الذهبي حتى وفاة زبيدة نفسها، وحتى يومنا الحالي الموفقين من ولاة أمور المسلمين، من يقوم بإعادة إعمارها كلما لحقها خراب أو داهمها سيل، فما يزال المهتمون ينسقون، ويعملون لبعث هذا المشروع من جديد والعناية به ومتابعته ودعمه مع مركز أبحاث المياه بجامعة الملك عبد العزيز بجده خدمة للحجيج والناس جميعاً.

زورنا في الموقع الالكتروني الخاص
بمجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية
www.giem.info

المراجع والمصادر:

١. مقال عن عين زبيدة لـد. عمر ابو رزيزة (مجلة أهلاً وسهلاً السعودية) العدد (١) يناير - كانون الثاني ٢٠٠٥ م وانظر (مرآة الحرمين)لإبراهيم رفعت باشا. الجزء الثاني. مطبعة بولاق ١٩٤٧.

٢. (انظر أخبار مكة المكرمة شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار الشريفة) - أبو الوليد الأزرقي(متوفي ٢٥٠ هـ) ط دار الأندلس - بيروت ١٩٨٣ م.

٣. وفيات الأعيان - ابن خلكان - ج١ - ط علي بك جودت القاهرة ١٢٩٩ هـ.

٤. تاريخ الطبري - ج٥ - ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٧ - ١٩٩٧.

٥. - تقي الدين أحمد بن علي (المقزيزي) ٧٦٦ - ٨٤٥ هـ وكتابه: (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك).

٦. - قطب الدين الحنفي الملكي (محمد بن أحمد) متوفي عام ٩٨٨ هـ انظر أعلام الزركلي ج٦ ط٢ - ١٩٥٥ بيروت. وانظر النور السافر عن أخبار القرن العاشر للعيدروس، وهو من أعيان مكة المذكورين وفضلائها المشهور. له شعر ونثر كثير. له كتاب (كنز الأسماء في كشف المعمى).

مصادر البحث

- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٠، ١٩٩٢م.
- أبحاث المؤتمر الرابع عشر للآثار والتراث والحضاري العربي، الشارقة ١٩٩٨م.
- التراث الجغرافي والإسلامي، محمد محمود محمدين، دار العلوم ط ٣،١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري، آدم سيتز، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة القاهرة، ١٩٤٧م.
- كتاب المناسك ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، ١٣٩٦ هـ.
- الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، وزارة الشؤون الإسلامية المغرب ١٩٨٢م.
- مرآة الحرمين، وإبراهيم رفعت الباشا، الجزء الثاني بولاق، القاهرة ١٩٤٧م.
- مروج الذهب ومعادن جوهر، تصنيف علي بن الحسن المسعودي ـ السفر الثالث ـ ط وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٩م.